بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: ١٠٦ **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ: ٠٣/ ١٢/ ٢٠٢٤م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

ما زال الكلام في الآية قبل الأخيرة ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً﴾.

ذكرنا أن في الآية مطالب متعددة بعض تقدم من قبيل رسالة هذه الآية الشريفة.

المطلب الثاني: وجه الالتفات في هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَما تَشاؤُنَ﴾ حيث تحول من الكلام مع الغائب إلى الكلام مع المخاطب، فما هو الوجه في هذا الالتفات؟

العلامة الطباطبائي ﷺ ذكر وجهاً للالتفات: أن الوجه في هذا الالتفات أن الآية الشريفة مسوقة لتنبيه هؤلاء الناس، والذي يتناسب مع التنبيه هو الخطاب؛ لأن الخطاب فيه حضور، فهو شخص أمامي أنبهه، أما الشخص الغائب لا أنبهه.

فباعتبار أن الآية الشريفة مسوقة لغرض التنبيه والتذكير فكان الأنسب حينئذ أن يخاطبهم لا أن يتكلم معهم بصيغة الغائب.

فإذاً الالتفات نشأ من التناسب بين أسلوب الخطاب وغرض التنبيه.

لكن هذا الوجه عندي فيه نظر، وإن كان التفاتة جيدة منه العلامة، فلم أر بمقدار تتبعي الناقص أحد ذكره حتى في التفاسير التي تختص في بيان النكات البلاغية، مثل: تفسير الزمخشري والطبرسي جامع الجوامع، فهذا النوع من التفاسير في الأعم الأغلب هو تفسير بلاغي يهتم بتلك النكات البلاغية. فهؤلاء لم يتعرضوا لبيان نكتة الالتفات.

لكن نتوقف عند هذا الوجه؛ وذلك باعتبار أن التذكير والتنبيه لم يبدأ من هذه الآية، بل بدأ التذكير والتنبيه من الآيات السابقة، حيث قال الآية السابقة ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾ فاستعمل التذكير عند قوله ﴿تَذْكِرَةٌ﴾.

لو كان أن الآيات السابقة لا يوجد فيها التذكير وتنبيه فشرع في هذه الآية بالتذكير والتنبيه لكان كلامه ﷺ في محله وله وجه.

بدأ التذكير والتنبيه من الآية التي قبلها، بل بدأ من الآيات السابقة عندما قال ﴿إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلا () نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلا﴾ فهذا كله تذكير وتنبيه، إلى أين ستذهبون؟ ونحن من أنشأكم وأبدعكم وكنتم لا شيء.

بل الآية التي قبل هذه الآية مباشرة استعملت مادة التذكير، ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي الذي تقدم تذكرة وتنبيه.

فإذاً هذا الوجه الذي ذكره العلامة ﷺ لا أوافق عليه.

الصحيح مما نستظهره من هذه الآيات هو أن هذا الالتفات في هذه الآية المباركة ينشأ من خطاب المقال، ونستفيد مما ذكره العلامة ﷺ لكن بطريقة أخرى.

الآيات السابقة على هذه الآية كانت تذكر وتنبه كما بيّنا وكما هو واضح. عندما يتنبه الإنسان يرتفع مقامه، فهو خطاب مقام. وهذا شبيه بالالتفات الموجود في سورة الفاتحة التي نقرأها يومياً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ فذكر لفظ الجلالة وهو اسم ظاهر والاسم الظاهر في قوة الضمير الغائب. فكله لا تخاطب شخصاً، وكذا في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِين﴾ لا أخاطب شخصاً، فلم أقل الحمد لك.

إذاً بدأت باسمه وأثنيت عليه ومدحته، فقلت إنه رحمن رحيم، وحمدته شكرته ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ واعترفت وأقررت بربوبيته ﴿رَبِّ الْعالَمِين﴾ بعد هذا الاعتراف وبعد هذا الثناء والمدح اقتربت مقاماً فصرت لائقاً أن أقف في حضرة الخطاب فأقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ فـ ﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير مخاطب.

هذا الالتفات نشأ من مقام بعد أن جرى على لسان العبد الابتداء باسم الله تبارك وتعالى الثناء عليه بكونه رحماناً رحيماً وبحمده وبالإقرار له بالربوبية والتدبير على العالمين صار لائقاً في أن يقف في محضر المخاطبة مع الله سبحانه وتعالى.

ما نحن فيه شبيه من هذا القبيل، بعد أن جاءت الآيات السابقة للتنبيه والتذكير، وبيّن في ختامها أن هناك طائفة يشاؤون أن يتخذوا إلى ربهم سبيلاً، صاروا لائقين بمقام الحضور فخاطبهم الله سبحانه

وتعالى، فقال: ﴿وَما تَشاؤُنَ﴾ هؤلاء الذين شاؤوا أن يتخذوا إلى ربهم سبيلاً، فهو خطاب مقام وخطاب رفعة.

هذا كله بناء على صحة قراءة التاء، وأما لو كانت الآية بالياء فهي على مقتضى الظاهر، فلا نسأل لأنه لم يخالف الظاهر.

المطلب الثالث: يرتبط بما جاء في ذيل الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً﴾.

في تفسير سورة لقمان توقفنا كثيراً عند هذه التذييلات، أن هذه التذييلات ليست اعتباطية، تارة عليماً حكيماً وتارة عزيزاً وثالثة غفوراً رحيماً، وهكذا.

قصة الأصمعي: كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي، فقرأت هذه الآية -آية القطع- فقلت (والله غفور رحيم) سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت كلام اللَّه. قال أعد، فأعدت: (واللَّه غفور رحيم)، ثم تنبهت فقلت ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: الآن أصبت، فقلت كيف عرفت؟ قال: يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع.

فلا بد للمفسر أن يقف عند التذييلات، فلماذا قال: ﴿عَليماً حَكيماً﴾؟

في الواقع هذا التذييل يتناسب تناسباً كبيراً مع الرسالة التي جاءت الآية لبيانها، ذكرنا في المطلب الأول في البحث السابق أن الآية جاءت لبيان مطلبين وفيها رسالتان:

الرسالة الأولى: أن لا يتوقع أولئك الذين استفادوا من أدوات الهداية وسلكوا طريق الهداية أنهم بذلك يستغنون عن مشيئة الله، فمشيئة الله ينبغي أن تكون معكم أيها الناس في كل لحظة من لحظات حياتكم.

الرسالة الثانية: فيها طمأنينة لأولئك الذين يسلكون هذا الطريق أنهم خاضعون لمشيئة الله، يتصرف بهم كيف يشاء؛ لمّا كانت هذه المشيئة متعلقة بتصرف الخالق تبارك وتعالى فهي لا تحتاج إلى قوة ولا تحتاج إلى قدرة بل تحتاج إلى علم وتحتاج إلى حكمة في التدبير.

فالذي يتناسب مع مشيئته في التصرف تبارك وتعالى هو أن يكون عالماً، فهذا يعطيني الحكمة. إذا كنت عبداً عند سيد لا علم له ولا حكمة في تدبيره أعيش دائماً حالة من الرعب والخوف، لأن هذا بتصرفاته

إلى يوصلني. بخلاف ما لو كنت عبداً عند سيد عالم وحكيم، فإن هذا يعطيني الطمأنينة وأمشي معه وعيناي مغلقتان.

إذاً كانت رسالة هذه الآية هي بث الطمأنينة في أولئك الذين يسيرون في طريق الهداية، فهذا الذيل يؤكد هذه الرسالة بشكل أقوى، أنكم تستندون إلى مشيئة عالم بالأمور، بل أكثر من عالم فهو عليم وهي صيغة مبالغة، وإلى حكيم في تدبيره وفي تصرفاته. فهذا يعطينا الطمأنينة أكثر فأكثر.